ليلة في مضارب النّور

للأستاذ عبد الحليم عباس

في سهول حوران التي ليس للأفق في فسيحها حد ، وقف الليل يصغي لهذه الفتاة النورية تعبر عن شجو شعب لفظته الحياة ، فلفظها وفي صدره غصة ، وفي قلبه جرح لا يلتئم

غنّت ورقصت كالطير الذبيح
وكانت أغانيها صدى لهذه الغربة الطويلة

من هذه الخليقة زمّوا رحيلاً ، يفتشون لهم عن وطن ، كادوا يبلغون حدّ الأفق ، ولمّا يجدوا مبتغاهم . كل شبر فيها ممتلك ، وراء الأفق . . . وراء الأفق ، علّ لكم به داراً

والتمعت الكواكب ، فكأنها قلوب تجف ، أو عيون تذرف فاطّلعت إليها ، وكأنما ادّكرت أوطاناً مجهولة ، وأحباباً خلفتهم عند مطلع الشمس ، فاندفعت تغني ما أنقل معناه ، وكان غناؤها في هذه النوبة بالغاً في أساه ، مشجياً في تعابيره ، يحمل في ثناياه ريح الكبد المحروق . قالت :

«إيه ياليل الشجن ، ليت جوانبك الفسيحة تطوى ، وآفاقك الترامية تنضام على نفسها ، فاذا هي في مدى النظر دار وأيكة ، نجلس فيها مع الحبيب ، لا يفزعنا النوى ولا تطوح بنا المقادير

إيه ياليل الشجى : ظننا الغربة يوماً وليلة ، ما علمناها العمر كلّه ، فمتى تكون الرجعة ، ومتى نلتقي والأحبة .

إيه ياليالي ، خلفناهم شباباً فبعد عشرين عاماً كيف آضت لمهم السود المعطرة ، وشفاههم الريانة بخمر الحياة ؟ كيف أضحت وجناتهم الناعمة ؟ هل جعدها النوى وغضّنتها السنون ؟ وقاماتهم المنتصبة كالغصن الرطيب ، أظنها انحنت تحت ثقل العمر والشجون . . . ليتني صخرة صمّاء مشدودة إلى هاتيك الربوع التي أحببت فيها حبيباً لم يغدر ولكن غدرت بنا الحياة

إيه فتاتي ! أوصيك ألا تلقي السمع لكلمات الحب تندّ عن أفواه الشباب الجميلة ، ما برح مكتوب على شعبك النوري جوب الأرض ، وذرع هذه الفلوات : فموت القلب بالخلو من الحب ، أخفّ من احتراقه في جحيم الذكريات

إغمضي عينيك عن الهوى ، عن النعمة الكبرى ، فلو كنّا أهلاً لها ، لبرئنا على غير هذه الشاكلة . . . »

إلى هنا وكأنما طفت موجة الحزن في نفسها ، وكأنما فتحت لها الأنشودة عالماً من الذكريات الشجية فجلست مجهودة لاغبة

* * *

وكنا في مضاربهم أربعة ، كأننا يفهم الحياة على غير الوجه الذي يفهمها عليه الآخر ، فمنا من يطلب فيها اللذة ، ومنّا من لا يبالي بلذتها وألمها ، ومنّا من لا يرى فيها متسعاً للذة ، ومنّا من يجدف عليها في الصباح ، ويهزأ بها عند المساء ، وفي الليل يدبّ إلى لذائذها يعصرها حتى لا يدع فيها بقية ؛ ونحن وإن اختلفنا فيها كثيراً نلتقي على شعور بعينه ، وهو الحسّ بألم الغير ، والرثاء لآلام الناس

فكان من هذا أن هزّنا شعور طيب ، هو مواساة هؤلاء التاعسين فكففنا عن طلب الغناء . وساجلهم الحديث منّا فتى لبق . قال وهو يوجه كلامه إلى هذه التي غنّت وجلست هامدة ، كأنما ذابت روحها مع أغانيها :

— ألك إخوة ياعزيزتي ؟

— نعم ، ثلاثة ، واحد دفنته في الصين ، وآخر واريته في طيبة ، والثالث على قيد الحياة

— كلنا سنموت ، فكيف رأيت هذه الديار ؟

— هي ديارك أنتم ، أما دارنا ، فهذا البيت المزق ، وظهر هذا البهيم

قال وهو يحبّ أن يمزج الجد بالدعابة ليخفف هذا الألم الطافح ويستلّ هذا الحزن المستعصي :

— ليست الأرض ملكاً لأحد ، أما سمعت قول الأديب الأكبر ، أهون عليّ أن أتصور الانسان مُلكاً للجبل ، ولا أتصور الجبلَ مُلكه . ملكه كيف ؟ أيستطيع أن يحمله ؟

— لا أفهم ما تعني

— ستفهمين ، أجل ما على أديم الأرض هذه الزهور الناجة تَيسُ بقاماتها ، وأجلُ ما فيها هذا العطر يفوح ، فهل يُملكُ عطرُ الزهرة ؟ هل تُحجبُ وجنة السماء عن أعين الرائين ؟ أبهجُ ما في الحياة ملكُ الجميع ، وما بقي فأفواتٌ وفضلات يشترك الانسان فيها مع أدنى المخلوقات

— صحيحٌ هذا ، ولكنّ هذه أشياء ليس لنا منها أدنى

فائدة ، أنا كل الكواكبُ ؟ أم نقتات بهذا الذى تنشره الزهرة ؟

فبهت صاحبنا

فنبهناه إلى غلطته ، وإلى أن هذه التى يخاطبها أضيقُ عقلاً وأسف إدراكاً من أن تفهم مجالى الفن الرفيع

فلم ييأس ، وعاد يفهمها ، ويأتى باللفظ القريب إلى عقليتها ، يقول : إنها لاتقيت ، ولكنّ فيها شيئاً أثمن من القوت ، وهل خُلِق الانسانُ لملء بطنه فحسب . . . هل أحببت ؟

فكأنها خجلت من هذا السؤال الثائر ، فرمت برأسها الى الأرض ، فعاد يلحُّ عليها بالاجابة

— نعم ، أحببت ؛ والنّورُ شعبٌ لا يخجلُ من المصارحة بمثل هذه الأحاديث

— وهل فى الحب لذة ؟

— نعم يا افندى

— أيهما أكبر لذة ، الحب أم القوتُ ؟

— الحب يا افندى . . .

— إذن فى الدنيا أشياء كثيرة أثمن من القوت

أفهمتِ ؟

— نعم

— وهذه الأشياء يتساوى فيها الغنىّ والفقير ، والأمير والحقير ، بل إن حظّ الصعاليك ليربو فى بعض الأحايين على حظوظ ذوى الجاه العريض والمنازل الرفيعة

فصمتت ، وكأنها تفكر وتزورُ حديثاً ، وبعد حين قالت : والغربة ، هل يستقيم معها نعيم ؟ انظر ها نحن أولاء نقيمُ هنا بعضاً من أشهر الصيف ، فاذا جاء الشتاء بقره ، اضطررنا الى النزوح كارهين ، فنحن نقضى العمر كلّه رحيلاً ، ولو شئت لقلت حنيناً ، نحنُّ الى هذه المرابع ، وغداً نحنُّ الى غيرها إذا أنسنا بها ، وهكذا نقضى العمر بالذكريات الموجعة ، والحنين الذى يُقطع نياط القلوب

قال : اسمعى ، ليس على ظهر هذا السهل — سهل حوارن — الممتد شمالاً حتى أذيال الشام ، النفسح غرباً الى سفوح هذه الجبال التى شاقها منظر سماء عجلون ، فنهضت اليها بغابات الصنوبر ، وملتف أشجار السنديان والبلوط ؛ لتقبل وجنتها . . . وليتك ترينها فى الصباح ، والضباب يلفها فى مثل غلائل العروس وهى تجاهد بنسيمها النعش ، وتداها العطر لترى السماء ، فتمزق الردن تارة ، وتشقق البنائق أخرى ، وهى فى كُلّ ذلك آية فى السحر والجمال والجلال . . أقول ليس على هذا السهل أخلدُ حياة ، وأكبر فؤاداً وإحساساً من صديقكم شاعر الواد[1]

— أعرفتِه ؟

— نعم ، فهو يزورنا فى غالب لياليه ، ويبقى حتى مطلع الفجر . .

— هذا الشاعر الضائع يا فتاتى ، هو فى هذا السهل أضيعُ منكم غربة ، يُذيب كبده فى لحنه ، وتسيلُ روحه على قوافيه . . . ولا من يسمع

— كيف ! ؟ انه لايحضر إلا ومعه لفيفٌ من صحبه وخلطائه ، فكيف يكون غريباً فى دياره وبين أحبابه ؟

— هو غريبٌ ووحيد ، يأتيكم ليأتنس بكم ، هو غريبٌ لأنه لا يجدُ صدىً لروحه ، وليست تُقاس الغربة ببعد الشقة والنأى عن الوطن ، وإنما تقاس بما بين الأرواح والأرواح من تفاوت وتقارب ؛ كم من ضجيعين على مهاد واحد بينهما من البعد ما بين ذاك النجم وهذا الوتد

فهزت النورية رأسها فعل الحائر الذى لم يفهم

وكنا ضقنا بصاحبنا ذرْعاً ، وأسمعناه من قوارص اللوم والاستخفاف بفلسفته التى جاء يُلقيها فى مضارب النّوَر شيئاً كثيراً ، وكأنه تعب . . فلم يعمل فى هذه المرة على إفهامها . . . فقلنا له متندرين مالك ؟ عُدْ الى وصل قولتك ، وشرح فلسفتك

قال : أطلتم اللوم ؛ لقد نلتنا مبتغانا ، أما كان عزمنا أن نذهب بشى من ألم هذه الفتاة ؛ فها هى الابتسامة تسيل على شفتها ، وشفاه عدة من قومها ، قلنا : غلطتَ يا أستاذ ، فما هى ابتسامة الصفو ، وإنما هى ابتسامة الاستخفاف بك ، والهزء من أقوالك

— ليكن ، فما يضيرنى أنا كون ساعة موضع سخرية النّور . .

* * *

وطلعت علينا الشرطة ، فخفقت قلوبهم ، فراحوا يُلمعون أنفسهم ، ويلقون علينا نظرات الرجاء أن نكفيهم شرّ هذا البلاء ، فكُنّا عند حسن ظنهم

(١) هو السيد مصطفى وهبى التل ، من أشعر شباب الأردن ، ومن أعرق شعراء العرب فى البوهيمية ، صادق النور ، وله فيهم قصائد هى آية فى الجودة ، وهو ينوى الآن مزاملتهم فى رحلاتهم الغنية

وقمنا الى السيارة ، ولما تبوأنا مقاعدنا جاءت النورية وهمست فى أذن صاحبها

— أيوجد مثلنا أناسٌ يذوقون حرَّ سياط الجنود الغلاظ الأكباد ؟ وهل يساوينا أحدٌ فى هذه النعمة ؟

— نعم يافتاتى ، ليست هى على ظهوركم بأشد نكاية وألما وأثقل وطأة منها على ظهور الأحرار

— ومن هم الأحرار ؟؟

لا أدرى ، أخشى سياطهم إن تفوهت ، وتلمس جنبه كأنما أحس بألمها ، هم ، هم صفـ . . . وة رجال الو . . . طن ، فى كل أمة ، سلى عنهم مصر ..! وضاع الصوت فى لجب هذه الرعناء ؟

شرق الأردن — عبد الحليم عباس

حول مقال الشخصية

جاء فى عدد (٦٨) من مجلة الرسالة الغراء فى مقال الأستاذ محمد عطيه الابراشى عن الشخصية بعض الأخطاء من الوجهة العلمية :

فقد قال الأستاذ :

(٢) « والغدد النكفية وهى غدد صغيرة أسفل العنق ولها صلة بالذكاء ، فاذا كانت قوية الافراز كان الشخص ذكياً وبالعكس . »

ومن المعلوم أن الغدد النكفية هى الغدد التى بجوار الأذن وليست بأسفل العنق ، وتسمى بالانجليزية « Parotid » وليس لها أى دخل فى الذكاء ، بل كل إفرازها يصب فى الفم بواسطة قناة يقرب طولها من الثلاثة سنتيمترات ، ووظيفة إفراز هاتين الغدتين كما دلت كل التجارب هى تحويل النشويات « Cabobydiate » إلى « ملتوز » « Maltose » ولها وظيفة ثانية هى المساعدة على ازدراد الطعام وتليينه وليس لها غير هاتين الوظيفتين

أما قوله بأنها غدد صغيرة فى أسفل العنق فأظنه قد أراد الـ Parathyroid وهذه الغدد أيضاً ليس لها تأثير كما هو ثابت على الذكاء بل تأثيرها على « الكلسيوم » الموجود بالدم ومن ثم على العظام نفسها ، ولهذه الغدد وظيفة أخرى خاصة بالأعصاب ، إذ لو قطعت هذه الغدد لأصبح تأثر العضلات سريعاً ولاشتدت قوة انقباضها ، وليس لها غير ذلك كما ثبت بالتجارب وقد يكون لها ، لكن العلم لم يقل كلمته بعد

وقد سمى حضرته الـ Thyroid بغدة تفاحة آدم ، وأظن أن من المستحسن إطلاق الاسم العربى المتداول وهو الغدة الدرقية فهو أسهل وأقصر

محمد رضوان
بكلية الطب

بين فن التاريخ وفن الحرب

٧ ـ خالد بن الوليـــد *

فى حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهـاشمى
رئيس أركان الجيش العراق

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

معركة بزاخة :

يقول ابن الكلبى إن بزاخة ماء لبنى أسد ، ولم يوضح لنا ياقوت هذا المحل فى معجمه ، والذى يلوح لنا أنه فى جنوبى فيد فى وادى الغمير على الطريق الذى يصل فيد بالبريدة . فالأرض فيه سهلة وهى صالحة للقتال

ولعل المعركة وقعت فى نهاية ايلول « سبتمبر » أو فى نهاية تشرين الأول « أكتوبر » إذ مضى على حركة خالد من ذى القصة ما يقارب الخمسة عشر يوماً ، وبعد أن أمن خالد جانب طيء واستنجد بهم تقدم رأساً نحو بزاخة ريد طليحة

وتقدمت أمامه قوة استطلاع بقيادة عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم ، وتدل الأخبار على أن المرتدين باغتوا هذه القوة وقتلوا قائديها ، وكانا من فرسان المسلمين المشهورين ، وكان جيش طليحة متأهباً للقتال يقود بنى أسد سلمة أخو طليحة ، ويقود فزارة عيينة ابن حصن ومعه سبعمائة فارس من فزارة

ومن الروايات ما يدل على أن خالداً وقف بالغمير قبل شروعه فى القتال ، وإن كانت الرواية التى يرويها الطبرى نقلاً عن سيف لا تذكر ذلك بوضوح ، وخلاصة الرواية أن أحد المسلمين أخذ رجلاً من بنى أسد فأتى به خالداً ، وكان الرجل عالماً بأمر طليحة فسأله خالد عما يعلمه عن طليحة

(*) وهو بحث فى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »